مجلة المعارف للبحوث و الدراسات التاريخية
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/111
ISSN: 2437-0584/ EISSN: 2437-0584
المجلد الثامن ،العدد الثالث ،جوان 2023، ص- ص379.-397

جهود العثمانيين في إنقاذ مسلمي الأندلس من حروب الاسترداد

Ottomans' efforts to save Andalusian Muslims from restitution wars

سميحة دري(*)
جامعة محمد بوضياف/ لمسيلة، (لجزائر)،
samihader2018@gmail.com

كريم مقنوش
جامعة يحي فارس/ المدية ، (الجزائر)،
Karimhamoud34@hotmail.com

تاريخ الاستلام: 2023/03/ 06 **تاريخ القبول:** 2023/06/ 09 **تاريخ النشر:** 2023/06/ 10

الملخص: سأتناول في هذا العمل الدعم العثماني ومساندته لمسلمي الأندلس، وانقاذهم من حروب الاسترداد التي باشرتها الملكة إيزابيلا وفيرديناند، خاصة بعد ظهور الدولة العثمانية على ساحة الأحداث ودخولها في صراعات وحروب مع القوى المسيحية الصليبية، وقد جاء اهتمامي بهذا الموضوع خاصة في ظل وصول رسالة استغاثة من قبل الموريسكيين للسلطان العثماني لنجدتهم، وللتعرف على الجهود العثمانية المبذولة لأجل إنقاذهم، ومعرفة تعداد العناصر التي تم نقلها من الأندلس إلى أماكن آمنة خاصة الجزائر، تمكنت خلالها الجزائر من مد نفوذها على البحر المتوسط، كما نجد تأثيرات هذه العناصر الوافدة التي أثرت الحياة الاجتماعية، بالطابع الأندلسي في مجالات عدة، و نقلت معها معارفها وعلومها وصناعاتها.

الكلمات الدالة: الدولة العثمانية؛ الموريسكيون؛ بربروس؛ محاكم التفتيش؛ حروب الاسترداد.

Abstrac: In this work, I shall address Ottoman support and support for the Muslims of Andalusia and their rescue from the wars of restitution initiated by Queen Isabella and Verdinand. Especially after the Ottoman Empire's appearance on the juvenile scene and its entry into conflicts and wars with the Crusader Christian Forces and my interest in this subject came especially in the light of the arrival of a message of distress by the ; Moriscos to the Ottoman Sultan for their benefit, To learn about Ottoman efforts to save them, and to learn about the number of items transferred from Andalusia to private safe places, Algeria, Algeria was able to extend its influence over the Mediterranean Sea. We also find the effects of these elements that have affected social life. The Andalusian character in various fields, and with it transmit its knowledge, science and industries

* المؤلف المرسل

Keywords: Ottoman Empire; Moriscos; Barbaros; Inquisition; Reconquista

1. مقدمة:

شكّلت المنافسة بين الدولة العثمانية والإمبراطورية الاسبانية مسرحا في مياه البحر الأبيض المتوسط في تاريخ الفترة الحديثة، بين رافع وحامي الإسلام والمسلمين وبين حامي المسيحية ورافع الصليب، ومن أجل ذلك جاء الدعم العثماني لمسلمي الأندلس الفارين من بطش محاكم التفتيش وحروب الاسترداد التي شنتها إيزابيلا وفرديناند، خاصة بعد وصول رسالة استغاثة منهم إلى السلطان العثماني بايزيد الثاني، الذي لبى النداء وأرسل أسطولا بحريا لأجل إنقاذهم، في تجسيد لأهم محطة من محطات الصراع الإسلامي المسيحي

بعد ظهور الدولة العثمانية كقوة عظمى على ساحة الأحداث والحروب التي خاضتها ضد القوى المسيحية الصليبية، ظهرت أسماء بارزة حملت لواء الجهاد ضد المسيحيين الصليبيين، فكان صدى انتصاراتهم يحوب أنحاء أروبا من بين هذه الأسماء نجد كمال ريس، والأخوين خير الدين وعروج، وعلج علي. إنجازات هذه الشخصيات كانت تحت راية الدولة العثمانية التي حفّزت مسلمي الأندلس على طلب النجدة من السلطان العثماني بايزيد الثاني من خلال رسالة مؤثرة تشكو حالهم من جرّاء بطش المسيحيين ومحاكم التفتيش التي طالتهم، فكان من السلطان العثماني أن أرسل القائد كمال ريس المعروف بقوته وبسالته التي أثارت رعب الأساطيل الإسبانية، للقيام بهذه المهمة، فقام بنقل أعداد كبيرة منهم من الأندلس إلى الأناضول والعمل على توطينهم هناك رفقة يهود الأندلس الذين تعرّضوا أيضا إلى سياسة البطش والقتل.

ولم يكن إرسال الأسطول البحري كافيا للسلطان العثماني بل عمل على تشجيع البحارة العثمانيين بشن الغارات على القوات الإسبانية وإنقاذ مسلمي الأندلس، وكان الحال نفسه للأخوين خير الدين وعروج، فبعد ظهورهما على الساحة سعيا إلى توطين نفوذهما في الحوض

الغربي للبحر الأبيض المتوسط لتحقيق هدفين مهمين لهما: أولا الاستقرار بالشمال الأفريقي، وثانيا تقديم المساعدات لمسلمي الأندلس.

ولمعالجة هذا الموضوع رأيت من المفيد طرح الإشكالية التالية: ماهي طبيعة المواجهة بين العثمانيين والاسبان؟ وما هي التحديات التي واجهت العثمانيين في البحر الأبيض المتوسط في قسمه الغربي لإنقاذ مسلمي الأندلس؟ والى مدى وُفّق خير الدين وغيره في القضاء على المشروع الاسباني المسيحي الصليبي في البحر الأبيض المتوسط؟

اهتمامي لدراسة هذا الموضوع لعدة أهداف وأسباب من بينها:

- الموضوع مثير للاهتمام لكونه يتناول جانب من معاناة مسلمي الأندلس من بطش محاكم التفتيش وحروب الإسترداد.
- التعرف على الجهود العثمانية المبذولة لأجل المورسكيين، ومعرفة تعداد العناصر التي تم نقلها من الأندلس إلى أماكن آمنة خاصة الجزائر.
- معرفة ردود أفعال المورسكيين تجاه هذه الأحكام والقوانين الجائرة التي أصدرت بحقهم ظلما.

ولمعالجة الموضوع محل الدراسة ارتأيت اتباع:

المنهج التاريخي الوصفي الذي يعتمد على عرض الوقائع والأحداث التاريخية ووصفها وصفا كرونولوجيا.

2. انتقال الأخوين بربروس إلى الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط:

بداية نشاط الإخوة بربروس في الحوض الغربي للمتوسط كانت بناء على نصيحة الأمير قرقود[1]، بالتوجه إلى هناك، خاصة بعد تنحيته من الحكم وتولي أخيه سليم الأول[2] عرش الدولة العثمانية، خاصة في ظل العلاقة الطيبة التي جمعت الأمير قرقود بعروج، رغم ذلك اختار عروج التواري عن الأنظار خوفا من إلحاق الأذى به، ليقرر في النهاية التوجه للحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط[3] سنة 1504م، بعد أن كان نشاط بربروس مقتصرا على الحوض الشرقي

للمتوسط للإغارة على سفن القديس يوحنا بجزر رودس اليونانية، ومن أشهر المعارك التي خاضها الأسطول العثماني بقيادة خير الدين وأسطول التحالف الأوروبي المسيحي بقيادة أندريا دوريا في 28 سبتمبر 1538م في خليج بروزة (البحر الأدرياتيك) والتي انتهت بانتصار العثمانيين، مكنتهم من فرض سيطرتهم على البحر المتوسط لمدة طويلة[4].

لم يقتصر النشاط البحري على المعارك بل تعداه إلى الانقضاض على السفن المسيحية المحملة بالبضائع[5] متشبعين بروح الانتقام ضد المسحيين[6]، التي غذاها استنجاد موريسكيو الأندلس بالسلطان العثماني لأجل حمايتهم مما تعرضوا له من ظلم واضطهاد على يد المسيحيين خاصة بعد سقوط غرناطة[7].

ومع ازدياد تعداد أتباع أنصار بربروس، أصبح من الضروري إيجاد مكان ملائم كمقر لهم، وكمركز للانطلاق منه في عملياتهم البحرية، وإصلاح السفن المعطوبة، وكمركز يأوون إليه في حالة الشعور بالخطر، فتم اللجوء إلى سلطان الدولة الحفصية بتونس[8]، المدعو أبو عبد الله مُحَمَّد بن الحسن[9]، هذا الأخير رحب بمقترح الأخوين بربروس عروج[10]، وخيرالدين[11]، ومنحهم ميناء حلق الواد ليكون قاعدة لانطلاق عملياتهم البحرية، ولم يكن ذلك حبا للإخوة بربروس، أو الحمية الدينية في دفاعهم عن الثغور الإسلامية وتلبية نداء مسلمي الأندلس بقدر ما كان حبا ورغبة في الحصول على الهدايا والمكاسب والعائدات المالية المقدمة له من قبل بربروس، وبذلك يكون قد جنّب أهالي تونس عن دفع المزيد من الضرائب التي أرهقت كاهلهم[12].

وأصبح ميناء حلق الواد نقطة انطلاقة فعلية لبربروس في هجماتهم الجهادية في البحر المتوسط، مما جعلهم يحققون لعديد من المكسب والانتصارات وينقلون ماغنموه إلى ميناء حلق الواد من أسرى مسيحيين، غنائم، وسفن[13].

3. معاناة الموريسكيين من بطش الاسبان:

بعد سقوط غرناطة أخر معاقل المسلمين بالأندلس، وتسليمها جرت مفاوضات بين أبي عبد الله آخر ملوك بني الأحمر وفيرناندو وايزابيلا انتهت بتوقيع معاهدة 25 نوفمبر 1491م، التي تضمنت عدة بنود تفضي في مجملها إلى الحفاظ على المقدسات الإسلامية واحترامها، غير أن الاسبان خرقوا هذه المعاهدة ولم يحترموا بنودها[14]، وفرضت لأقصى الإجراءات التعسفية على المسلمين في محاولة لتنصيرهم وتضييق الخناق عليهم حتى يرحلوا عن شبه الجزيرة الإيبيرية، وصفها أحد المؤرخين بكونها " أقسى من أن يتحملها شعب ما، فكيف بأحفاد المنصور وعبد الرحمن وبني سراج"[15]، وتولى الكاردينال خيمينيس[16]، مهمة إجبار مسلمي الأندلس على الاختيار بين اعتناق الديانة المسيحية أو مغادرة البلاد، فقد تعرض الموريسكيون إلى المضايقات وتم إخضاعهم للرقابة والتفتيش من قبل الاسبان، وتعريض أي شخص للمحاكمة لمجرد الشك في أنه لا يزال محافظا على دينه وتعاليمه الإسلامية[17]، ومن بين القرارات الصارمة التي أصدرها حكام اسبانيا سنة 1567ضد الموريسكيين في غرناطة في شكل مذكرة السيد فرانثيسكو نونييث[18]، أهمها:

- منعهم من استعمال اللغة العربية في التواصل والخطاب، ومنعهم من ارتداء الألبسة ذات الطابع العربي.
- إجبار الموريسكيين على ترك أبواب منازلهم مفتوحة لتسهل عليهم عملية مراقبتهم.
- منع الزواج وفق شروط الشريعة الإسلامية، وإجبارهم على الزواج وفق الطريقة والقوانين المسيحية.
- غلق الحمامات ومنع الاستحمام.
- حظر اللباس الموريسكي على الرجال والنساء وإلزام النساء إلى كشف الوجه.
- تظل أبواب البيوت مفتوحة ويحظر استعمال الأسماء والألقاب الإسلامية.
- ارتكاب مجازر في حق المسلمين كمذبحة لشبونة 1506م، التي قتل بها عدد كبير من المسلمين وتم حرقهم أحياء أمام الملأ.

كما كان يتم تعذيب السجناء في عملية استنطاقهم، فكثيرا ما كان السجين يقر بذنب لم يقترفه حتى يخفف عن نفسه وطأة التعذيب، فغالبا ما كان يتم تقييده على السلم، ويتم قلب

رأسه للأسفل، مع وضع المياه في فمه حتى يقرب بطنه على الانفجار، وكذلك التعذيب باستخدام السيخ الموضوع بالنار، ووضع القوالب المعدنية المسخنة فوق النار على بطن وأقدام المتهم، مع القيام بسحق العظام بالآلات الضاغطة وتمزيق السيقان، تفكيك الفك[19]، كما يشمل أمر القبض على المتهم على العبارات التالية كأمر بحجز جميع الممتلكات، الحجز على النقود والأصول، وفي حالة عدم وجود المال لدى المقبوض عليه في إطار محاكم التفتيش يقومون ببيع ممتلكاته وأخذ النقود كنفقات لمحكمة التفتيش[20].

كما تم إصدار قرار يقضي بالطرد الإجباري النهائي للموريسكيين بتاريخ 22 سبتمبر1609م، وذلك لعدة أسباب من بينها:

- عدم قدرة الكنيسة على تنصير الموريسكيين.
- وجود الموريسكيين أصبح يشكل خطرا يهدد المملكة.
- الزيادة الديمغرافية للموريسكيين مقابل الاسبان المسيحيين.
- ممارسة الموريسكيين لشعائرهم الدينية في القرى والمناطق المعزولة من صلاة وصيام وحفظ للقرآن.
- التعصب الديني الشديد ضد الإسلام[21].

وعلى الرغم من إصدار قرار يقضي بهجرة الموريسكيين وطردهم[22]، إلا أن ملك اسبانيا منع مغادرة آلاف من الأطفال الموريسكيين وذلك بهدف دمجهم في المجتمع الإسباني المسيحي الكاثوليكي[23]، ويذكر أحد الشهود معاناة مسلمو غرناطة من تجاوزات وعقوبات طالتهم من قبل الإسبان، فيصف إمام جامع غرناطة المدعو يوسف بنغاش لأحد الأشخاص قائلا: « بالنسبة لي لم يبك أحد بمرارة كأبناء غرناطة، لا تشك بقولي لأني واحد منهم، ولكوني شاهد عيانا، رأيت بعيني كل السيدات المحترمات أرامل ومتزوجات يعرضن للبيع، وشهدت بيع ثلاثمائة فتاة، بالنسبة لي فقدت ثلاثة أبناء وابنتين إضافة لزوجتي، وما بقي لي من عزاء سوى هذه الابنة وهي في الشهر السابع من عمرها»[24].

وقد وصف السفير الأمريكي واشنطن ايفرينج ابتداء من سنة 1852م ما لحق بالمسلمين من اضطهاد من خلال اطلاعه على المخطوطات العربية التي كانت متواجدة بإسبانيا، فقد ذكر أن المسلمون ممن ينتمون للعائلات النبيلة كانوا يوضعون في حظائر الحيوانات، تحضيرا لنقلهم فيما بعد إلى أسواق النخاسة ليباعوا كعبيد، وكان هذا حال النساء والأطفال والشيوخ، فقد وصف حالة الحسرة والألم التي بدت عليهم وهم يقتادون إلى الأسواق مكبلين بالسلاسل والأغلال، أما الرجال فقد قتل الكثير منهم ومن بقوا على قيد الحياة أخذوا كعبيد للعمل بالتجديف أو في خدمة الكنيسة، بينما الفتيات أرسل عدد منهم إلى شقيقة الملك فرديناند والباقي أرسلوا كهدايا إلى ملكة البرتغال، وجزء منهم تم إرساله كهدايا إلى نساء البلاط والأسر النبيلة، وتعرض العديد منهن لحالات اغتصاب، ومنهن من رمت نفسها من أعالي الأبراج الشاهقة قبل أن يصل إليها جيوش الصليبيين[25].

بينما الكاردينال خيمينيس بعد أن فشل في تنصير المسلمين أمرهم بإحضار جميع كتبهم ومخطوطاتهم إلى الساحة العامة، وقام بتفقد هذه الكتب وأخذ منها كتب العلوم والطب والفلك والرياضيات، وأضرم النار ببقية الكتب، وكان أول المحرقين لها في غرناطة، وقدّر المؤرخون الاسبان عددها بحوالي 80 ألف، وفتح بالكتب المتبقية جامعة ليتم تحويلها إلى مدريد باسم الإسكوريال، احتوت على الكثير من المخطوطات الإسلامية[26].

4. استنجاد موريسكيو الأندلس بالسلطان العثماني:

اختلفت أراء المؤرخين حول أنباء مأساة مسلمي الأندلس إلى العثمانيين، وأشار عبد العزيز التميمي أن أهالي غرناطة أرسلوا في سنة 1477م وفد إلى السلطان مُحَمَّد الفاتح على اثر فتحه القسطنطينية سنة 1453م طالبين التدخل لإنقاذهم، وبالرجوع إلى المصادر العثمانية لا وجود أي إشارة توحي بذلك، ماعدا ذلك تجمع المصادر العثمانية بأن السلطان بايزيد الثاني بن مُحَمَّد الفاتح هو الأول من تلقى نداء استغاثة وطلب نجدة مسلمي الأندلس، بحيث أرسل أبو عبد الله مُحَمَّد الصغير آخر ملوك بني الأحمر بغرناطة رسولا حاملا رسالة يعرض عليه الوضع المؤلم للمسلمين، فأرسل السلطان بايزيد أسطولا بقيادة كمال رييس سنة 1487م وقام بقصف

السواحل الشرقية لأراغون[27]، وتجدر الإشارة أن كمال رييس يعتبر أول قائد بحري عثماني قاد حملات عسكرية على السواحل الاسبانية، والأول من قام بنقل عدد كبير من مسلمي الأندلس واليهود وتوطينهم في الأناضول[28]، كما أورد المؤرخ أحمد المقري التلمساني في كتابه " أزهار الرياض في أخبار عياض" قصيدة طويلة من موريسكي مجهول تناول فيها الحالة الدينية والسياسية المزرية التي تعيشها غرناطة ومعاناة مسلميها من بطش الآلة النصرانية من تعذيب وحرق وطرد طالبا النجدة والاستغاثة للسلطان العثماني[29].

وتجدر الإشارة أن عدد سكان غرناطة قبيل سقوطها كان يصل إلى مليوني نسمة، لينقص العدد بعد 50 سنة من السقوط إلى 364 ألف[30]، حسب الرسالة التي وردت إلى السلطان سليمان القانوني، كما تنتقد موقف المغرب الأقصى لعدم تقديم المساعدة لهم بحجة الضغوط الاسبانية والبرتغالية التي تعرضت لها، وأثنى الأندلسيون على خير الدين في استجابته لنداء الاستغاثة ودوره في نقلهم إلى بر الأمان، وناشدوا السلطان سليمان في أخر الرسالة بتثبيت خير الدين على ولاية الجزائر باعتبارها سياج لأهل الإسلام – حسب قولهم- ووجوده يرهب الأعداء ويساعد في إنقاذ المسلمين الأبرياء[31].

ذكر خير الدين في مذكراته أن سلاطين الدولة العثمانية بدءً بالسلطان با يزيد الثاني إلى السلطان سليمان القانوني مرورا بالسلطان سليم الأول أنهم لم يتخلفوا عن مساندة ونجدة مسلمي الأندلس، ونظرا لاهتمامهم بهذه المسألة تلقى خير الدين العديد من الرسائل السلطانية تأمره بإنقاذ هذه الشريحة[32]. وهكذا سعت الدولة العثمانية تجديد السيادة الإسلامية في البحر الأبيض المتوسط، بنجاحها في إنقاذ طرابلس وتونس والجزائر لتكون منطلقا لتقديم المساعدات إلى الأندلسيين ونقلهم إلى بر الأمان، والإغارة على السواحل الاسبانية.

5. الجهود العثمانية المبذولة لإنقاذ مسلمي الأندلس:

إذا نظرنا إلى حجم المساعدات التي قُدمت إلى مسلمي الأندلس من طرف رياس الدولة العثمانية بموازاة مع المعارك التي خاضوها ضد المشروع الصليبي المسيحي الاسباني والدول الأوروبية

الأخرى فهي كثيرة، ولم تتخلّف قط عن مساندة هؤلاء المستضعفين، وما مساهمة القادة العثمانيون في إنقاذ المسلمين لخير دليل على ذلك.

1.5. إسهامات خير الدين وعروج في إنقاذ مسلمي الأندلس:

كان البحر الأبيض المتوسط مسرحا لانتصارات الأخوين عروج وخير الدين في غاراتهما على سفن وشواطئ إسبانيا وجنوة وفرنسا وسردينيا وصقلية ومايورقة حتى ذاع صيتهما، ويذكر شارل أندري جوليان أن السلطان الحفصي وعلى اثر إنقاذهما لآلاف مسلمي الأندلس، منح لعروج جزيرة جربة لاستعمالها كقاعدة عسكرية[33]، وتذكر المصادر أنه خلال سنة 1513 أبحر الأخوان عروج وخير الدين بأسطول متكون من ثمانية سفن، وبين 300 و400 جندي إلى السواحل الاسبانية لنجدة الموريسكيين، وتم نقل عدد كبير لم تذكر المصادر العدد ماعدا أنه تم نقل عدد كبير إلى الجزائر وتونس[34].

اعتبرت اسبانيا ما حققه عروج في الجزائر خطرا قد يهددها في البحر المتوسط، خاصة بعدما أصبحت مدينة الجزائر قاعدة عسكرية للعثمانيين ويساعدونهم في ذلك الموريسكيين الذين أصبحوا محاربين، يهددون أساطيلها كل من يجرؤ على محاربتهم، لذا لم يتأخر الكاردينال خمينيس الذي تولى حكم اسبانيا مؤقتا بعد وفاة الملك فرديناند سنة 1516، في تنظيم حملة عسكرية بحرية تتكون من 35 سفينة بقيادة ديقو ديفيرا Diego de Vera، الذي انتهت المعركة بانهزام الجيش الاسباني على يد عروج[35].

وبمجرد تحرير البينيون Penon في 1529 فكّر خير الدين في تأمين سفنه من هجومات الأساطيل المسيحية ومن العواصف، وأول عمل أنجزه أنشأ الرصيف وقام بتحصينه، فأصبح الميناء ملجأ آمن للسفن ونقطة اتصال بالعالم الخارجي، سترعب به البحر المتوسط والمحيط الأطلسي لمدة ثلاثة قرون[36]، وتلبية لنداء الاستغاثة سارع خير الدين على رأس أسطول مكون من 36 سفينة حتى بلغ السواحل الاسبانية، ولم يجرؤ الاسبان على صده أو الوقوف أمامه، فحمل خير الدين أكبر عدد من المسلمين، ولكثرتهم كان يترك أكبر عدد من بحارته

الجزائريين في عين المكان لكي يحمل مكانهم المستضعفين، حتى إذا أوصلهم إلى بر الأمان في الجزائر، عاد إلى اسبانيا ليأتي بغيرهم، إذ وصل عددهم إلى 70 ألف بين نساء ورجال وعمّروا مُدنا مثل البليدة ودلس وغيرهما[37].

ولم يكتف خير الدين بهذا الانجاز في إنقاذ مسلمي الأندلس، كلّف آيدين رييس الذي كان أكثر دراية بأعمال البحر وأكثر شجاعة برفقة صالح رييس بالإبحار إلى السواحل الاسبانية، وغادر مرسى الجزائر في عشرة سفن حتى بلغ مضيق سبتة والتقى بخمسة سفن اسبانية ودارت معركة وانتصر فيها آيدين رييس واستولى عليها، ثم واصل وأغار على المدن المطلة على السواحل الاسبانية فأسر 375 اسباني، وأنقذ المسلمين حتى لم يبق في سفنه مكان[38].

وكثّف خير الدين عملياته البحرية لإنقاذ مسلمي الأندلس حتى بلغت أكثر من 20 عملية، واستمرت غارات رياس البحر أكثر من مائة سنة – منذ سقوط غرناطة إلى الترحيل النهائي للموريسكيين- وقدّر عددها بحوالي 33 غارة ما بين 1528 و1584م، سببت خسائر كبيرة للاسبان، بحيث تمكن درغوث رييس سنة 1559م من ترحيل 2500 موريسكي، وفي سنة 1570م تم نقل كل سكان مدينة بالمير Palmire، وفي سنة 1574م نقل الأسطول الجزائري 2300 موريسكي، وفي سنة 1575م تم نقل كل سكان مقاطعة كالوسا Calosa، هذه العمليات كلّفت اسبانيا خسائر كبيرة في اقتصادها خاصة من جانب الإقطاعيين بسبب فقدها للحرفيين والعمال[39].

2.5. دعم الأيالة الجزائرية لثورة الموريسكيين 1568– 1570م:

منذ أن برزت الجزائر كقوة إسلامية مؤثرة وقاعدة متقدمة للدولة العثمانية في غرب البحر الأبيض المتوسط، كتب فرناند بروديل أن البحرية الجزائرية ما بين 1560م و1570م، أصبحت المسيطرة على غرب المتوسّط من البحر الأدرياتيكي شرقاً إلى مضيق جبل طارق والسواحل الأطلسية لإسبانيا شرقاً[40]، لم تتوان في نصرة المسلمين ورد الاعتداءات الصليبية المتكررة ضدهم، ويتجلى ذلك الدور الفعّال الذي لعبته في مختلف المواجهات الإسلامية المسيحية في البحر

الأبيض المتوسط، والتي سجل فيها حكام الجزائر صفحات مشرفة، ومن بين المحطات التاريخية التي أدت فيها الجزائر دورا مميزا ثورة الموريسكيين التي اندلعت سنة 1568م[41].

فالأوضاع القاسية التي عان منها المسلمون أدت إلى نشوب ثورة البشارات Alpujarras في أواخر سنة 1568م[42]، حيث استغلت الظروف الإسبانية والتي كانت منشغلة بالثورة مع الأراضي المنخفضة، فقد فوجيء الملك فيليب الثاني بأخبار هذه الاضطرابات، ولم تكن الظروف العسكرية ملائمة لتوفير العدد الكافي من الجند لمواجهة الثورة، فقد كانت السواحل الإسبانية مقفرة بسبب الحروب من جهة والخوف من الغارات البحرية الإسلامية من جهة أخرى، فقد شغلت هذه الثورة الإسبان لمدة عامين[43].

كان زعيم هذه الثورة يدعى فرج بن فرج الوزير الأكبر من بني سراج، والذي كُلّف بتنفيذ المهام الأولى و التخطيط للثورة مع بعض الزعماء المسلمين، كما بعث برسله إلى المغرب والجزائر التي كانت تحت الحكم العثماني يطلب العون منهم[44]، وقد كانت الجزائر استقبلت قائدها الجديد علج علي[45]، الذي عزم على مواصلة الجهاد ضد الإسبان، تلقى رسالة من السلطان سليم الثاني[46]، يطلب منه مساعدة مسلمي الأندلس الذي لم يتردد في مساعدتهم بكل ما أوتي من قوة، فقد أرسل الموركيون أحد رجالهم يسمى بارتال إلى الجزائر مرتين لمقابلة علج علي، وإعلامه بوضعية الموركيين ونوع المساعدات التي هم بحاجة إليها[47].

كان علج علي على اتصال مباشر بقيادة مسلمي الأندلس عبر قنوات خاصة، واستطاع أن يمد الثوار في إسبانيا بالرجال والعتاد، واتفق مع مسلمي الأندلس القيام بثورة عارمة في الوقت الذي تصل فيه القوات الإسلامية مع الجزائر إلى السواحل الإسبانية، جمع علج علي جيشا من 14 ألف رجل من رماة البنادق و 60 ألف من المجاهدين العثمانيين من مختلف أرجاء البلاد، واستعد للهجوم على وهران ثم النزول في بلاد الأندلس، وكان مع الجيش عدد كبير من البنادق مع 1400 بعير محملة بالبارود، وتم الاتفاق على يوم الأربعاء الموافق ليوم عيد مجمع القديسين، لكن أخفقت يومئذ لسوء تصرف أحد رجال الثورة الأندلسيين، إذ انكشف أمره فداهمه الإسبان وضبطوا ما كان يخفيه في بيته من سلاح، وبذلك ضاعت فرصة مباغتة الإسبان[48].

رغم فشل المحاولة الأولى إلا أن ذلك يفشل عزيمة الموريسكيين في تجديد الثورة مع مواصلة علج علي مساندتهم، فاستغلوا فرصة احتفال المسيحيين بأعياد الميلاد 1568م وأعلنوا تفجير الثورة، وقد أرسل علج مساعدات عسكرية ولكنه اضطر لتأجيل العملية عند سماعه أن دون جوان النمساوي Don Juan d'Autriche – الابن غير الشرعي للملك شارل الخامس- يستعد لشن حملة بحرية على مدينة الجزائر، فاضطر للبقاء مترقبا الأحداث[49].

وقد شكل الثوار خطرا كبيرا بفضل الدعم الذي يتلقونه من الجزائر، فأخذت تركز جهودها على تصفية ثورة غرناطة في أسرع وقت ممكن، حيث أوكل الملك فليب الثاني مهمة قمع الثورة لدون جوان، فباشر قمع الثورة في سنواتها الأولى (1569م-1570م)، وأتى من الفضائع ما بخلت بأمثاله فقتل النساء والأطفال وأحرق المساكن ودمر البلاد وكان شعاره "لا هوادة"[50]، وكانت أحداث مؤلمة لخّصها الأمير شكيب أرسلان عن كتاب استانلي " الإسلام في الأندلس"[51]، إلا أن الثورة استمرت وزاد لهيبها، لذا اضطر الدون للتفاوض مع قائد الثورة الحنفي حيث اتفق الطرفان على وقف القتال مقابل الوعد بالعفو التام لجميع المسلمين الثائرين، ولكن سرعان ما اشتعلت الثورة من جديد، وهنا لجأت الحكومة الإسبانية إلى نفي المسلمين من غرناطة وتشتيتهم في مختلف أنحاء اسبانيا وكان ذلك في 1570م، وتم تنفيذ القرار بكل وحشية و بربرية[52].

6. خاتمة:

من خلال دراسة جهود العثمانيين في إنقاذ مسلمي الأندلس من قبضة الركونكيستا بعد ظهورهم في البحر المتوسط في إطار الصراع الإسلامي المسيحي، استخلصنا مايلي:

- ساعدت الحرب ضد المسلمين على ظهور الروح القومية في اسبانيا، أدت إلى ميلاد اسبانيا الحديثة في سنة 1474م، يضاف إلى نجاح الاسبان ومعهم البرتغال في الكشوف الجغرافية وتحقيق موارد مالية وانتصارهم في شمال إفريقيا بالتحريض من الكنيسة على مواصلة الحرب ضد الإسلام والمسلمين.

– كانت اسبانيا في معاركها في شمال إفريقيا وغيرها تسير حسب خطة مرسومة وبرنامج محكم، فما كادت تثبت تواجدها بالناحية الغربية، حتى وجهت أنظارها إلى الناحية الشرقية مغتنمة فرصة تردي الأوضاع السياسية وكثرة الفتن.

– مازاد من قلق الاسبان ظهور النشاط البحري الإسلامي على سواحل المغرب الإسلامي ورفعه لمبدأ الجهاد بتأثير عدة عوامل منها: الاقتصادية والسياسية منذ هجرة مسلمي الأندلس إلى شمال إفريقيا واستقرارهم في الموانئ وإسهامهم في تمويل السفن للانتقام من الاسبان.

– لم يتردد العثمانيون في العبور واختراق مياه البحر الأبيض المتوسط عندما سنحا لهم الفرصة، طالما أن ذلك يحقق أهدافهم في الامتداد نحو الغرب لإنقاذ مسلمي الأندلس، ويستمر الجهاد ضد الاسبان المسحيين لتبقى كلمة الإسلام هي العليا.

– استطاع خير الدين بإستراتيجيته في إخماد الفتن والتمردات لتمتين الجبهة الداخلية في الجزائر، وصد المحاولات المتكررة للاسبان ومواجهة مشروعه الصليبي لإضعاف الجزائر، ونظرا لموقعها الاستراتيجي عمل على أن تقود الجهاد ضد الركونكيستا بالدرجة الأولى والدول الاستعمارية الصليبية ثانيا.

– اعتبرت ثورة الموريسكيين في اسبانيا مفيدة للقادة العثمانيين في الجزائر لأنها جمّدت القوات البحرية الاسبانية وأيضا الجيش الاسباني الذي بقي في حوض البحر الأبيض المتوسط، كما أعطت فرصة لعلج علي في محاولة مد سيطرة الجزائر من جديد على الساحل الشمال الإفريقي.

7. الهوامش:

[1] قرقود: هو الابن الثاني للسلطان بايزيد الثاني، وأكبر سنا من أخيه سليم، عرف بحمايته للبحارة الأتراك، تم اغتياله من قبل سليم الأول بعد توليه عرش الدولة العثمانية سنة 1512م، للمزيد ينظر، مذكرات خير الدين بربروس، ترجمة: مُحَمَّد دراج، ط1، شركة الأصالة للنشر،الجزائر، 2010، ص 29.

[2] السلطان سليم الأول: ترتيبه التاسع بين السلاطين العثمانيين، حكم بين 1512-1520، بعد الانقلاب على والده بايزيد الثاني بدعم من الإنكشارية، ليتولى عرش الدولة العثمانية، تمكن في فترة حكمه هزم الصفويين سنة 1514، وضم بلاد الشام سنة 1516، ومصر بعد هزيمة المماليك سنة 1517، كما ضم الحجاز واليمن، ازدهرت الدولة العثمانية في عهده وعهد ابنه سليمان القانوني، ينظر، عبد الكريم شوقي، الأوضاع السياسية بالجزائر في مطلع القرن السادس عشر ميلادي، وظروف انضوائها تحت راية الخلافة العثمانية، مجلة الحوار المتوسطي، المجلد 12، العدد1، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، 2021،ص 412.

[3] سالم جوامع، الإخوة بربروس بين شرق وغرب البحر المتوسط، مطلع القرن 16م، قراءة جديدة في النشأة والمنجزات، المجلة الجزائرية للأبحاث والدراسات، المجلد3، العدد3، جامعة مُحَمَّد الصديق بن يحي، جيجل، الجزائر، 2020، ص 137.

[4] مذكرات خير الدين، مرجع سابق، ص 172.

[5] تذكر المصادر التاريخية أن سنة 1512م هي سنة مغادرة بربروس لجزيرة ميدللي بعد إعدام الأمير قرقود، بينما دوغرامون يرى أن قدوم بربروس إلى الجزائر كان بين سنتي 1510-1512م، وتشير مصادر أخرى إلى تواجد خير الدين بربروس بالمغرب قبل سنة 1494م، إلا أن خير الدين يذكر في مذكراته مغادرته لجزيرة ميدللي رفقة شقيقه عقب مقتل الأمير قرقود، وهو ما يرجح فرضية سنة 1512م، للمزيد ينظر، مُحَمَّد دراج، الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس 1512-1543م، ط1، الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2012، ص181.

[6] ويليام سبنسر، الجزائر في عهد رياس لبحر، تعريب وتقديم عبد القادر زبادية، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2006، ص38.

[7] مذكرات خير الدين، مرجع سابق، ص 176.

[8] بلقاسم صديقي، بدايات الوجود العثماني بالجزائر 1505-1519م، مشكلة الحضارة، المجلد 8، العدد2، جامعة الجزائر2، الجزائر، 2020، ص7.

[9] أبو عبد الله مُحَمَّد بن حسن المتوكل(1494-1526): تنحدر أصوله من مدينة بجاية، تولى الحكم بعد وفاة والده السلطان يحي أبي زكرياء، لم يبد رغبة في تولي الحكم، توفي سنة 1526، ليخلفه في الحكم ابنه عبد الله الحسن بن

مُحَّد، من أهم أعماله تأسيس المكتبة العبدلية، حوالي سنة 1500م بجامع الزيتونة، ينظر عبد الكريم شوقي، مرجع سابق، ص 411.

[10] عُروج: يحمل عدة معاني، الصعود تيمنا وتبركا بليلة المعراج، وأيضا معناه بالتركية رمضان، فلقد كان الأتراك يطلقون على أبنائهم أسماء شهور السنة الهجرية، إلا أن الأتراك لا يلفظون حرف العين، مستدلين على ذلك بأحد الألواح بمدينة شرشال منقوش عليها: :" هذا برج شرشال أنشأه القائد مُحَّد ابن فارس التركي، في خلافة الأمير القائم بأمر الله المجاهد في سبيل الله أروج بن يعقوب، بتاريخ أربع وعشرون وتسعمائة" ولد عروج بجزيرة ميديللي سنة 1470م، وهو الابن الثاني، توفي سنة 1518م، للمزيد ينظر عبد الحميد بن اشنهو، دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر، دار الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 1972، ص38-39، مُحَّد دراج، مرجع سابق، ص152-153، أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا 1492- 1792، المجلد 5، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010، ص 145.

[11] خير الدين: واسمه خضر، اشتهر بلقب بربروس، أطلق عليه السلطان سليم الأول لقب خير الدين، من مواليد 1472م بجزيرة ميديللي عقب أخيه عروج بسنتين، مارس التجارة مع أخيه عروج بسفينته بين سلانيك وأغريبوز، بعد نجاة أخيه عروج من أسر فرسان رودس انتهى به المطاف بتونس، ليلتحق به خير الدين هناك، توفي خير الدين بعد حياة حافلة بالجهاد والغزو، شهر جويلية 1543م ودفن في قبره الذي أعده بنفسه في ساحل بشكتاش باسطنبول، للمزيد ينظر مُحَّد دراج، المرجع نفسه، ص 165، 169.

[12] مُحَّد دراج، نفسه، ص 184.

[13] أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا1492 -1792، مرجع سابق، ص 159.

[14] بلغت مواد هذه المعاهدة خمسين مادة، للمزيد ينظر، عبد الله مُحَّد جمال الدين، المسلمون المنصّرون الموريسكيون الأندلسيون، صفحة مهملة من تاريخ المسلمين في الأندلس، ط1، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1991، ص ص 21- 32.

[15] عبد القادر فكاير، مساهمة الجزائر في دعم الأندلسيين واحتضانهم 1492- 1609، مجلة عصور جديدة، العدد 16-17، 2014- 2015، ص 235.

[16] خيمينيس: فراي فرنسيسكو خيمينيس دي سيسنيروس، يطلق عليه العرب لقب ابن الخميس، من مواليد طليطلة سنة 1437م، خريج جامعة سالامنك إحدى أشهر الجامعات المسيحية، تولى مناصب عدة من بينها

أسقف طليطلة، كاردينال، بعد وفاة فرديناند عين واليا على عرش اسبانيا نيابة عن شارل الخامس، ولما بلغ 81 سنة تم عزله عن مهامه من قبل شارل الخامس ليتوفى بعدها بمدة قصيرة، للمزيد ينظر، عبد الحميد بن اشنهو، دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر، دار الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، 1972، ص58، 55، 61.

[17] عبد الرحمن أولاد سيدي الشيخ، الموريسكيون ونكبة سقوط الأندلس، مجلة الباحث، العدد17، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، الجزائر، 2017، ص 148-49.

[18] مرثيديس غارثيا أرينال، الموريسكيون الأندلسيون، تر: جمال عبد الرحمن، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، 2003، ص 53.

[19] بسام اسخيطة، قصة محاكم التفتيش في العالم، ط1، دار هيا للنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، 2000، ص 79.

[20] مرثيدس غارثيا-أرينال، محاكم التفتيش والموريسكيون، محاضر محكمة كونيكا، ترجمة خالد عباس، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، القاهرة، مصر، 2004، ص49-50.

[21] عبد الرحمن أولاد سيدي الشيخ، مرجع سابق، ص150.

[22] – هناك دراسة قيمة تتناول بالأرقام عدد المطرودين من مختلف المناطق التي يقطنوها مسلمو الأندلس، وهي متفاوتة العدد بين مؤرخي القرن 16م من الاسبان وبين مصادر أندلسية، تؤكد عدم صحة الطرد النهائي والكلي لمسلمي الأندلس، ينظر، دوبالي خديجة، مأساة طرد مسلمي الأندلس بعد سقوط غرناطة: الأبعاد والتحليل، مجلة عصور الجديدة، العدد 23، عدد خاص، أوت 2016، ص ص 105- 125.

[23] نفسه، ص150

[24] مُحَمَّد دلباز، مأساة الموريسكيين الأندلسيين التنصير والتعميد، مجلة متون، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، العدد الرابع، جامعة سعيدة، 2017، ص 152.

[25] أحمد مُحَمَّد عطيات، الأندلس من السقوط إلى محاكم التفتيش، ط1، أمواج للطباعة والنشر، عمان، الأردن، 2012، ص 129-130.

[26] هنري تشارلس لي، العرب والمسلمون في الأندلس بعد سقوط غرناطة، تر: حسن سعيد الكرمي، ط1، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، 1988، ص 47.

[27] مُحَّد حسن العيدروس، العصر الأندلسي خروج العرب من الأندلس، ط1، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 2011، ص 150،151.

[28] مذكرات خير الدين بربروس، مرجع سابق، ص 60.

[29] مرثيديس كارثيا أرينال، الموريسكيون الأندلسيون، تر: جمال عبد الرحمن، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، 2003، ص ص 41- 46.

[30] إن الإحصائيات الخاصة بعدد موريسكيي مملكة غرناطة في عهد الملك فيليب الثاني متفاوتة وتقريبية، ويذكر لين بول أن عدد المبعدين والمنفيين الكلي لمسلمي الأندلس بعد سقوط غرناطة سنة 1610م بلغ 3 ملايين عربي، ينظر، خوليو كارو باروخا، مسلمو مملكة غرناطة بعد عام 1492، تر: جمال عبد الرحمن، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، 2003، ص ص 83- 86. وأيضا، عبد الواحد ذنون طه، حركة المقاومة العربية الإسلامية في الأندلس بعد سقوط غرناطة، ط1، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، ص 79.

[31] عبد الجليل التميمي، رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة 1541، المجلة التاريخية المغاربية، العدد 3، جانفي 1975، ص ص 37، 38 .

[32] مذكرات خير الدين، مرجع سابق، ص 147.

[33] شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية تونس الجزائر المغرب الأقصى من الفتح الإسلامي إلى سنة 1830، ج2، تعر: مُحَّد مزالي والبشير بن سلامة، ط2، الدار التونسية للنشر، تونس، 1983، ص 326.

[34] أحمد توفيق المدني، مرجع سابق، ص 152.

[35] H.D. de Grammont, Histoire d'Algérie Sous la Domination Turque (1515- 1830), éd, Ernest, Paris, 1887, P23

[36] نعيمة بوحمشوش، مساهمة البحرية الجزائرية في الحروب العثمانية خلال القرن السادس عشر، القافلة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2016، ص ص 123، 124.

[37] توفيق المدني، مرجع سابق، ص 208.

[38] مذكرات خير الدين، مرجع سابق، ص ص 131، 133.

[39] هنري تشارلس لي، مرجع سابق، ص 165.

[40]Fernand Braudel, La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II, Armand Colin, Paris, 1966, Tome 2, p93.

[41] للمزيد من تفاصيل هذه الثورة 1568 – 1570، ينظر، مارمول كاربخال، وقائع ثورة الموريسكيين، ج1، ط1، تر: وسام مُحَمَّد جزر، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر، 2012، ص ص275– 317.

[42] مارمول كاربخال، وقائع ثورة الموريسكيين، ج2، ط1، تر: وسام مُحَمَّد جزر، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر، 2012، ص ص342– 407.

[43] كان للثورة صدى وامتداد إلى باقي المناطق الجنوبية من اسبانيا، ينظر، عبد الواحد ذنون طه، مرجع سابق، ص ص 26 – 37.

[44] خوليو كارو باروخا، مسلمو مملكة غرناطة بعد عام 1492، تر: جمال عبد الرحمن، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، 2003، ص 181.

[45] من مواليد كلابريا سنة 1500، وقع أسيرا في قبضة السفن الجزائرية وبعد إسلامه تخلى عن كنيته " لوقا قالييني" واتخذ لنفسه اسم علي، شارك مع الريس درغوث في حصار مالطة 1565، وبعد استشهاد الأخير آل إليه حكم طرابلس سنة 1568، عُيّن بايلربايا على الجزائر، ضم تونس سنة 1569 إلى الدولة العثمانية، قاد الأسطول الجزائري في معركة ليبانت 1571، عُيّن أميرالا للأسطول اعترافا بنشاطه البحري، تمكن من استرجاع تونس نهائيا من قبضة الاسبان سنة 1774، توفي 1587، ينظر، نعيمة بوحمشوش، مرجع سابق، ص 194.

[46]سليم الثاني، من مواليد 1524م وهو ابن السلطان سليمان القانوني، لم يكن مؤهلا لمواصلة سياسة أبيه، استلم الحكم سنة 1566م ولم تحدث عند توليه العرش اضطرابات كما حدثت للسلاطين السابقين، حققت الدولة العثمانية نجاحات جيدة في عهده، ووقفت مواقف مشرفة تجاه المسلمين في الأندلس وتونس واندونيسيا، كما خاضت معارك كبيرة مثل معركة ليبانت في أكتوبر 1571م، توفي في سنة 1574م، ينظر، مُحَمَّد سهيل

طقوش، تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة، دار النفائس، بيروت، لبنان، 2008، ص ص 231، 239

[47] بوحمشوش، مرجع سابق، ص 190.

[48] توفيق المدني، مرجع سابق، ص ص 368، 369.

[49] نفسه، ص 394.

[50] عبد القادر فكاير، مرجع سابق، ص 237، 238.

[51] توفيق المدني، مرجع سابق، ص 370.

[52] مارمول كاربخال، وقائع ثورة الموريسكيين، ج2، مرجع سابق، ص 543.